طب نفسى

..وحياتى هى ملكى !!

د. محمد شعلان

التحدى

حياتى هى ملكى يا حكيم ! من حق أن أقرر أن أبقيها أو أفنيها دون وصاية من أحد مهما كان علمه أو تخصصه . لقد أنشأ المجتمع مهنة الطب وحدد لها أهداف الإبقاء على الحياة قدر المستطاع ، والإبقاء عليها بالحد الأدنى من الألم والمعاناة . . وتضخمت المهنة ، وتضخم اهتمامها بأهدافها حتى كادت تصير فوق القانون ، وفوق حق الإنسان فى اختيار البقاء من عدمه ، وفى اختيار الألم . وأصبحت فى موقع الوصى الذى يحدد للغير أن يحيا أو يموت ، وأن يتألم أو يتلذذ .

لقد بدأت مشكلتى حينما طلبت من طبيبى أن يخرجنى من المستشفى بعد مكوثى به ستة شهور للعلاج من آثار حادث تصادم أدى إلى كسور فى عظامى ، ثم شفائها ، وتمزق فى نخاعى عند الرقبة نتج عنه شلل تام لأطراف وجسمى ، ما عدا التنفس ، مع بقاء رقبتى ورأسى بلا أضرار . وهذا التمزق مثله مثل أية إصابة للجهاز العصبى لا يمكن علاجه أو انتظار أى تحسن فيه بعد مرور عدة شهور .

لقد دخلت المستشفى وأنا فى حالة غيبوبة وعظامى مهشمة فأعطانى الطبيب العلاج ، دون أخذ موافقتى بالطبع ، وأعاد لى الوعى وسلامة الأطراف المكسورة ، ولكنها صارت أطرافا بلا وظيفة . لا تتحرك ولا تحس لأن الأعصاب التى تغذيها انفصلت صلتها بالمخ بتمزق النخاع عند الفقرة الرابعة من عمودى الفقرى .

ولما كانت مهنتى ، وموهبتى فى الأصل هى البحث فقد تبلدت مشاعرى أنى إنما أنفذ حكما بالإعدام . ماذا أفعل بحياتى وأنا لا أملك اليد التى تستطيع أن تحول فكرى ووجدانى إلى عمل يتجسد فى تمثال جميل يعجب الآخرين ؟

عندما بدا علىّ القلق ، وطرحت هذه التساؤلات على الطبيب ، لم أجد حيلة إلا أن يصف لى الأقراص المهدئة لقد قام بعمل مجيد حينما أعاد لى وعيى بعد أن كنت فى غيبوبة . ولكن الآن وبعد أن امتلكت الوعى الذى يجعلنى أطرح هذه التساؤلات المريرة ، فهو يريد أن يعيش عن وعيى بالمهدئات .

وعندما اعترضت ورفضت تناول الأقراص أصر وأذاب الأقراص فى الماء ووضعها فى أنبوبة ذات طرف حاد يخرق الجلد ويدخل العقار جسدى رغما عنى . أعطانى العلاج بالحقن .

لقد خالف الطبيب القانون بأن أعطانى علاجا بلا موافقة منى ، فلجأت إلى القضاء ، وبدأت الصراع معه . فكان دفاعه أنى مريض وفى حاجة إلى علاج ، وأن هذا واجبه كطبيب . فهو لم يستشرنى حينما أفقت من الغيبوبة وعاون عظامى على الالتئام . وبناء عليه فهو لم يستشرنى حينما قرر أن حالتى تستدعى التهدئة .

ولكنه تجاهل أنى حينما كنت فاقدا للوعى كان جسدى ينوب عنى فى الإعلان عن الرغبة فى الحياة . وبالتالى كانت هناك موافقة ضمنية على العلاج . أما الآن فهو يعالج وعيى فى ذات الوقت الذى أعلن فيه بوعى أنى لا أريد العلاج .

وزاد إصراره حينما اقتربنا من جوهر المشكلة . لقد طلبت الخروج من المستشفى رغم علمى أنى إذا لم أتلق الرعاية التمريضية اللازمة فسوف يتراكم البول ويؤدى إلى تسمم دمى فأموت بعد أيام .

وطلبت الخروج لأنى فى حقيقة الأمر قررت ألا أستمر فى الحياة المصطنعة التى أعيشها ، لم يكن مجرد قرار بالانتحار ولكنه قرار بتقبل الموت الذى أصبح أمرا واقعا إذ أنى اكتشفت أن حياتى كعقل بلا يد أو حيال لا يترجم إلى واقع ليست حياة ولكنها موت مصحوب بالوعى به .

إنى أعى أنى مت وكل ما أطلبه أن يترجم وعيى هذا إلى واقع بدلا من أن يستمر بشكل مصطنع فيطول عذابى بلا مبرر ، وأستمر فى تخيل ما كان يجب أن يكون ، وهو لا يكون ، وأستمر فى أن أشتهى المرأة بينما أنا عاجز تماما عن لمسها . . ورفض . .

وكان هذا جوهر التصادم بيننا . إنى أقدر موقفه ، لقد استمر ستة شهور يبذل الجهد لإعادة ما تيسر من الحياة إلى جسدى المهشم ، ونجح فى حدود ما هو ممكن . كان ذلك الجسد الذى صممه تمثالا العمل الفنى الذى خلقه والتمثال الذى تحته .

وبعد هذه المعاناة والجهد يواجه بأن هذا التمثال إرادة تتناطح مع إرادته ، لقد اكتسب من مهنته هذا الحق الإلهى ، فى أن يحيى ويميت ، ونسى أن مريضه بشر من خلق الله هو الآخر ، وله الحق فى اتخاذ قرار الحياة أو الموت . وإذا اعتبرنا أن الطبيب قد فوض لنفسه سلطة إلهية فمن واجب المريض ، أو على الأقل من حقه أن يرده ، أو على أسوأ الفروض يفوض لنفسه حقا مماثلا ، لقد تعود من المرضى على الطاعة مقابل أن يتركوا مسئولية إحيائهم ، وإماتتهم متخلين بالتالى عن مسئوليتهم فى هذا القرار .

وها أنذا أتحدى هذا الوضع . لا أريد أن أكون مريضا فاقد الوعى وفاقد الإرادة . لا أريد أن أحمله وحده مسئولية إحيائى وإماتتى ، بل أن أشاركه فى القرار وأتحمل وحدى فى النهاية مسئولية ما يخصنى ، وهو أمر حيائى وموفق بعد أن استعدت وعيى .

ان الطبيب لم يعتد على هذا الموقف من مريض ، ولذلك فقد أزعجه . ولم يجد مخرجا منه إلا أن ينفى حقيقته بأن يقول إن هذا مستحيل . والذى يفعل ذلك لابد أنه مجنون .

وعندئذ يجد الطبيب مخرجا من خلال الطب أيضا ، فالقانون يعطيه الحق فى علاج المريض رغما عنه ، إذا ما ألبت أن المريض مجنون ، وما دمت أنا أتخذ قرارا ينافى ما يراه هو صوابا فلابد أنى مجنون ، وله بالتالى مبرره أن يجبر على حقى فى اتخاذ القرار .

وفعلا استدعى الطبيب زميلا له متخصصا فى الطب النفسى . وجاء هذا المسكين ليثبت لى أنى مجنون ، بينما كان علىّ أن أثبت العكس .

وبينت له المعضلة التى وقع فيها : إذا كنت أملك من الحجة والمنطق ما يبرر قرارى

بالموت فسوف يقول إنى مجنون . لأنى مصمم على الموت . وإذا لم أملك الحجة قال إنى مجنون لأنى لا أفكر بالمنطق وعاجز عن تقديم الحجة . لقد طلبت منه أن يسرع فى الكف عن استجوابى . لأن استمراره فى ذلك كان من المحتم أن يؤدى إلى جنونى .

وأخيرا جاء القاضى وكان محاميا قد استدعى طبيا نفسيا آخر لا بيت بصلة عمل لطبيبى المعالج . وقال إنى مكتئب فعلا وإن هذه استجابة طبيعية لمن هو فى مثل موقفى . وليس اكتئابى نابعا من داخلى . ودون مبرر خارجى . أى ليس اكتئابا مرضيا من النوع الذهانى (الجنونى) الذى يجعلنا نقول انه يفسر النزعة الانتحارية . ولما سأله المحقق عما إذا كان يرى أن قرارى صواب أو خطأ قاطعه القاضى وحيره بين أن يمتنع عن الإجابة إذا أراد . ولكنه طلب أن يجيب باختصار . إنه لا يوافق على قرارى بالموت .

وخرج القاضى ليفكر فى الأمر . ليقول إنه رغم أن مهنة الطب من واجبها الابقاء على الحياة . فإن صاحب القرار فى قبول العلاج من عدمه هو المريض . ومادام المريض يملك وعيه وقدرته على وزن الأمور فمن حقه أن يرفض العلاج . حتى لو أكد له الطبيب أن ذلك معناه موته .

ونظرا لأن المريض فى هذه الحالة يحتفظ بوعيه وقدرته على وزن الأمور . ورغم أن طلبه يعنى أن يحكم على نفسه بالإعدام . فإن المحكمة ترى أن المريض محق فى طلبه . وعلى الطبيب أن يسمح له بالخروج . واختم القاضى حديثه بأن سألنى : أليست هذه الرحمة التى تطلبها . ها أنذا قاضى الإعدام الرحيم .

وحزن الطبيب . وجاءنى وطلب منى أن أقبل البقاء فى المستشفى مقابل احترامه لحق فى رفض العلاج . أى أن أموت فى المستشفى . وتعجبت لطلبه ولما سألته . قال : ربما تغير رأيك . فأكدت له : ان ذلك لن يحدث .

وها أنذا يا حكيم أتحدث إليك . إذ ليست لك مصلحة فى الحجر علىّ . ولن تملك أن تنصحنى لأنى أحدثت حريق من المحكمة ولكنى مع ذلك أشاركك مشاعرى بأنى أيامى وأنا فى هذه الحالة قبل أن يميل على الموت . ولن يفقدنى أحد . والاختيار فعلا بيدى وأشعر بعبئه . ترى هل مجرد التشاور معك دليل الشك فى أن قرارى ليس نهائيا وأن هناك احتمالا أن أغير رأيى فعلا كما قال الطبيب ؟

يجيب الحكيم : الحلقة المفقودة فى تشخيص الطب لمرضك أنه اعتبر نقطة بداية المرض هى الحادث الذى هشم عظامك وأصاب مخك . وأن علاجك هو فى إعادة وعيك والتحام عظامك . وتعويضك عما أصابك من فقدان وظيفى الحس والحركة فى أطرافك بالتدليك والتمريض وما شابه .

لقد تجاهل الطب أن هناك شخصا اشترك فى مسئولية وقوع الحادث وليست المسألة مجرد صدفة . لم يتساءل الطب عن الحادث . ولذلك لم يفطن إلى احتمال أن يكون الحادث الذى وقع لك هو مظهر لرغبتك الدفينة فى الموت أى أن رغبتك فى الانتحار لم تكن وليدة الحادث أو استجابة لعجز الطب عن علاج التهتك الذى أصاب نخاعك الشوكى .

ولذلك اعتبر الطب أن انتحارك من عدمه مجرد قضية محددة بذلك الجزء الذى لم يستكمل من عملية الانتحار التى ظهرت فى الحادث نفسه . لقد حاولت أن تموت بالحادث ولم تكتمل العملية . وعدت إلى وعيك وعندئذ قررت أن تكمل بوعى ما بدأته ربما بلا وعى (ولذلك سمى حادثا . فأنت غالبا لم تكن واعيا برغبتك فى التصادم بسيارتك !)

ولأن الطب لم يستمع إلى معاناتك الأصلية التى جعلتك ترتكب الحادث . فإنك ازددت حزنا ووحدة . وطلبت الحديث مع المحتمع ومع القضاء . وهنا مرة أخرى لم يفطن القضاء إلى معاناتك – فهذه ليست وظيفته على أية حال – ولكنه أعطاك حق اتخاذ القرار فى حدود وعيك ووعيه .

لقد كان القاضى حزينا وهو يحقق لك مطالبك فى الخضوع للموت . وأبدى الطبيب موقفه فى مناجاتك أن تبقى بجواره حتى النهاية . لكى يأتى لنجدتك إذا طلبت . كلاهما كان يعلم أن هناك خطأ ما فى قرارك . وأنت أيضا تعلم . ولذلك جئت تستشيرنى . لو كنت تريد الموت حقا لما تشاورت معى أصلا .

ومع ذلك فلن أقول لك يجب أن تعيش بحكم القانون . ولا بحكم المهنة المبقية على الحياة . ولكن فقط سوف أقول لك إنك أردت الموت بارتكابك الحادث . ولكنك أردت الحياة بنجاتك منه . فيما كان الطب فعالا . فإذا لم تكن لدى كل مريض رغبة ملحة ودفينة فى الحياة لما عاش . وأنت أردت الموت حينما طالبت بحقك فى الامتناع عن العلاج . ولكنك طلبت الحياة حينما عبرت عن ترددك لتوك . ولعل ما كان ظاهرا ومعلنا هو رغبتك فى الموت . ولكن ذلك كان لأن الموقف المكمل له هو وجود من يعلن نيابة عنك عن ضرورة البقاء . أى الطبيب المعالج الذى يقول لك بفعله وقوله : يجب أن تعيش .

ومادام هناك من يقرر لك حياتك فيمكنك بالتالى أن تعلن الجانب الآخر وهو رغبتك فى الموت . أى أنك تستطيع أن تقول : أريد أن أموت . مادام هناك من يقول : لن أتركك تموت . ولكن الآن وقد حكم القضاء ألا يحجر عليك أحد فأنت تواجه الاختيار كاملا : اختيار الحياة أو الموت على السواء . وليس عليك إلا أن توازن بينهما . وتختار ما تفضله .

ولعل ما يعاونك على اتخاذ القرار السليم هو الوعى بأن قراراتك السابقة هى مسئوليتك أيضا . أنت مسئول عن الحادث وعن النجاة منه . حينما ارتكبت الحادث كان هناك اختلال فى وظائفك المنطقية . لم تعمل الحسابات الكافية لتجنب وقوع الحادث . ربما كنت مسرعا أو غير منتبه لانشغالك بأمور اخرى غير القيادة . أو ربما كنت تتمنى الموت . ربما كانت ترفض التفكير المنطق والوعى الحدود الذى يجعل المرء يركز انتباهه فى حيز ضيق حتى يستطيع التحكم فيه . ربما كنت ترفض العمل والنظام والدقة . وبسبب رفضك احتلت القيادة ووقع الحادث .

أعترف لك يا حكيم أن القصة التى حكيتها لك من صنع الخيال . فهى قصة مسرحية (حياة من هى أصلا ؟) التى ألفها برايان كلارك . وقام بالدور الرئيسى فيها الممثل المسرحى الشهير مايكل موربارتى . لقد قرأت الكتاب وشاهدت المسرحية وعايشت أحداثها وكل ماكنت أريده منك هو موقفك من القضية وأنا لست صاحب مشكلة

أجاب الحكيم : لقد سبق أن حاول أحد مرضى فرويد أن يختلق له أحلاما ليتجنب الحديث عن نفسه . ولكنه مع ذلك من خلال عملية الاختلاق . علاوة على التداعى الطليق حول تلك الأحلام عبر عن عقله الباطن بكل وضوح . التعبير الذى نجده من خلال تلك المسرحية لا شك يعبر عما بداخلك .

نعم كان أنى مهندسا وأراد أن يدخلنى الجامعة لأصير مثله ولأصعد السلم الاجتماعى . وأملأ دورا منتجا فى المجتمع وأتكسب مثله . ولكنى وربما بفضل تكسبه هو . اكتشفت القيم الجمالية للأشياء وليس فقط قيمها المادية الاقتصادية واخترت الفن . . وجاء الوقت الذى كان لابد للفن أن يتحول بدوره إلى عمل منتج أستطيع من خلاله أن أتكسب وأتعيش .

وحتى ذلك الوقت كنت أمارس الفن فى عزلة عن الحياة . عن التكسب وعن الواقع وعن الفعل . وكان فنى خيالا بلا عضلات بلا أيد وبلا أرجل . ولحت ضغط الحياة واجهت احتمال أن أصاب بالشلل المعنوى . امارس الخيال . ولا أستطيع أن أعبر عنه بالفعل . وقد ينتج عن ذلك الجوع ثم الموت المادى وليس المعنوى فقط . لقد توحدت مع بطل المسرحية الذى عزله فنه عن واقعه . وصار فعلا رأسا بلا أيد وبلا أرجل . إنه بهذا الاكتشاف يقول إن الفن بلا فعل يعنى الموت .

لقد تفاعلت مع المسرحية لأنى متيقن من هذه الحقيقة . ولكنى لا أريد للفن أن يموت . ولا أصدق أن الطبيب أو القاضى أو المجتمع يريدون ذلك أو يعجزون عن المحافظة على بقائه .

واختتم الحكيم كلامه : إنك تمثل ذلك الجيل الشاب الذى ثار فى الستينات باحثا عن القيم الإنسانية والجمالية . ورافضا عادية الجيل السابق . إلا أن المثل العليا والقيم الجمالية والإنسانية إذا ما انفصلت عن الواقع مثلها مثل انفصال رأس المريض عن يديه ورجليه مآلها الموت .

لقد وافق المجتمع على حق الشاب فى الانتحار . ولكنه لم يسأل ما الذى دفعه للانتحار أصلا . وأين مسئولية المجتمع ؟ إنه يفطن إلى . أن المجتمع بقاس مدى تحضره بقدرته على رعاية ضعفائه ومشلوليه ومعوقيه بغض النظر عن كونهم منتجين من عدمه أن يرعى فنانيه حتى لو لم يكن فنهم من ذلك النوع السطحى الذى يغمر السوق فى يوم ثم يموت . أن يرعى معارضيه . وأصحاب الآراء المخالفة والشاذة . ويوفر لهم مناخ التعبير وأن يحترم أصحاب الـ ٥١٪ ويتفهمهم ويعضدهم .

هذا ينطبق على الفرد فى علاقته بالمعارضة بداخله . وبالفن المبدع والنزعة الخلاقة فيه . وينطبق على المجتمع وعلى الإنسانية ككل . ونحن – شعوب العالم الثالث – ذلك المريض المشلول الذى يرفض العلاج وأنتم عاجزون عن إنقاذنا . فى ذات الوقت الذى يخزنكم إقبالنا على الموت هكذا . ألا تفكرون فى تقديم هذه المسرحية فى مصر على مسرح أبو الهول ؟

يا حبذا لو جاءتنا دعوة من مسئول . فنحن مثلا فى حاجة إلى المشاركة وتبادل الرأى . لابد أن نتكاتف جميعا لنعيش ونتطور . ويجب أن نخرس من التقدم المادى العضل المنفصل عن الروح والخيال . وأنتم تحلمون بالتقدم المادى وترفضونه فى ذات الوقت . ونحن نستمع به ولكننا سنمناه لعلنا نجد الإجابة معا .

□